الفصل الثانى

حالة المرأة فى ظل اليهودية والمسيحية

أولاً : حالة المرأة عند اليهود :

برغم أن اليهودية دين سماوى فإن اليهود آمنوا ببعض هذا الدين وكفروا ببعض ، فكانت حالة المرأة فى المجتمع اليهودى حالة سيئة ومهينة ، فكان بعض الطوائف يجعلون البنت فى مرتبة الخادم ، وكان لأبيها الحق فى أن يبيعها وهى قاصر ، ولم تكن لترث إلا إذا لم يكن لأبيها ذرية من البنين .

وجاء فى سفر الجامعة فى توراة اليهود المحرفة :

« درت أنا وقلبى لأعلم وأبحث ، ولأطلب حكمة وعقلاً ، ولأعرف الشر أنه جهالة ، والحماقة أنها جنون ، فوجدت أمرَّ من الموت ، المرأة التى هى شباك ، وقلبها شراك ، ويداها قيود وأن الصالح أمام الله ينجو منها . رجلاً واحدًا بين ألف وجدت ، أمّا امرأة فبين كل أولئك لم أجد » .

وهناك أسطورة يهودية تقول :

إن المرأة هى السبب فى خطيئة آدم وإغوائه وإخراجه من الجنة » .

ومن أحكام الشريعة اليهودية المحرفة أنه :

« إذا توفى شخص بدون أن ينجب أولادًا ذكورًا تصبح أرملته زوجة تلقائية لشقيق زوجها ، أو أخيه لأبيه ، رضيت بذلك أم كرهت ، وتجب عليه نفقتها ، ويرثها إذا ماتت ، وأول ولد ذكر يجىء من هذا الزواج يحمل اسم زوجها الأول ويخلفه فى تركته ووظائفه ، وينسب إليه لا إلى زوجها الحالى ، فيخلد بذلك اسم زوجها الأول ، ولا

يمحى من سجل بنى إسرائيل ، ولا يجوز لهذه الأرملة أن تتزوج من غير شقيق زوجها المتوفى أو أخيه لأبيه إلا إذا خلصها » .

ويتم هذا الخلاص فى طقوس غريبة ينص عليها سفر التثنية إذ يقول :

« إذا لم يرغب هذا الأخ فى الزواج بأرملة أخيه فإنه يجب عليها أن تشخص إلى مجلس شيوخ بنى إسرائيل وتذكر لهم أن أخا زوجها قد عزف عن تخليد اسم أخيه فى سجل إسرائيل فلم يرغب فى الزواج بها ، وحينئذ يستدعيه أعضاء هذا المجلس ويحضونه على العدول عن رأيه والزواج من امرأة أخيه ، فإذا لم يذعن لرأيهم وظل متشبثاً برأيه تقدمت إليه امرأة أخيه وخلعت نعليه وبصقت فى وجهه قائلة : هكذا يجب معاملة من لا يعمر منزل أخيه ، وسيطلق على منزله اسم « منزل الحافى » من لا نعل له » .

وقد أقرت ذلك المادة ـ ٣٦ ـ من كتاب الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للإسرائيليين فى مصر ، إذ تقرر أن المتوفى عنها زوجها إذا لم يترك أولاداً ذكورًا وكان له شقيق أو أخ لأب اعتبرت زوجة له شرعًا ، ولا تحل لغيره مادام حيًّا إلا أذا تبرأ منها ، وأكثر من ذلك ، فإن شريعة حكماء اليهود تعتبر البنت سلعة تُباع وتُشترى ، فهى تبيح للوالد المعسر أن يبيع ابنته بيع الرقيق لقاء ثمن يفرج به أزمته ، وهكذا اعتبرت المرأة فى ظل هذا الفهم اليهودى متاعاً يُوَرَّث ، وسلعة تُباع وتشترى [1] .

ثانياً : حالة المرأة فى أوربا المسيحية :

حالة المرأة فى أوربا فى عهد الرق والإقطاع :

جاء عصر المسيحية فى أوربا وأرادت أن تتدارك الفوضى الخُلقية فى عالم الغرب ، فاستطاعت أن تسد السبيل فى وجه الفحشاء ، وقضت على العُرى ، وقضت على الدعارة غير أن الفكرة التى كان يحملها الآباء المسيحيون عن العلاقة ما بين الرجل والمرأة كانت قد جاوزت حد التطرف فى جانب ، وكانت حرباً على الفطرة البشرية فى جانب آخر ، برغم أنهم دعاة شريعة الحب والرحمة .

---

(١) انظر : المرأة فى الإسلام للدكتور على عبد الواحد وافى ، والمرأة بين الشريعة والقانون للدكتور مصطفى السباعى ، والحجاب لأبى الأعلى المودودى .

فمن جانب : كانت نظرتهم للمرأة أنها ينبوع المعاصى ، وأصل السيئة والفجور ، وهى للرجل باب من أبواب جهنم من حيث هى مصدر تحريكه وحَمْله على الآثام . ومن المرأة انبجست عيون المصائب الإنسانية جمعاء ، فبحسبها ندامة وخجلاً أنها امرأة، وينبغى لها أن تستحى من حسنها وجمالها ؛ لأنه سلاح إبليس الذى لا يوازيه سلاح من أسلحته المتنوعة ، وعليها أن تلعنه ، ولا تنقطع عن أداء الكفارة أبدًا ؛ لأنها هى التى قد أتت بما أتت به من الشقاء للأرض وأهلها .

وذكر «ترترليان» أحد أقطاب المسيحية الأوائل وأئمتها ، فى كتابه (وصف المرأة) ، مبيناً نظرية المسيحية فى المرأة ، قال : « إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان ، إنها باب الشيطان ؛ لأنها أفسدت آدم ـ وهو مظهر من مظاهر قدرة الله ـ بحمله على الأكل من الشجرة الممنوعة ، ناقضة لقانون الله ، ومشوهة لصورة الله ، أى صورة الرجل ، فهى الخطيئة مجسمة ، وهى باب للجحيم ، ويجب أن نلعن المرأة ؛لأنها سبب الغواية» .

وقال «كراى سوستام» الذى يُعد من كبار أولياء الديانة المسيحية فى شأن المرأة : «هى شر لابد منه ، ووسوسة جبلية ، وآفة مرغوب فيها ، وخطر على الأسرة والبيت ، ومحبوبة فتاكة ، ورزء مطلى مموه » .

وقال : « لوفـى» : « إن المرأة شر لابد منه ، وبلاء لا مهرب منه ، ونكبة تنساق إليها النفوس ، وبرق خُلَّب ، ومرض عضال ، وإن الشيطان مولع بالظهور فى شكل أنثى » .

وقد عقد رجال الكنيسة الفرنسيون سنة ٥٨٦ م اجتماعاً فى بعض ولاياتهم ثم أخذوا يبحثون : هل للمرأة أن تعبد الله كما يعبده الرجل ؟ هل المرأة تدخل الجنة وملكوت الآخرة ؟ هل تُعد المرأة إنساناً له روح يسرى عليه الخلود أو غير إنسان ؟ وكان ختام البحث أن قرر المجتمعون أنها إنسان ، ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل ، وهى نسمة فانية لا خلود لها .

أما الجانب الآخر لنظرة الآباء المسيحيين للمرأة فخلاصتها : أن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة هى نجس فى نفسها يجب أن تتجنب ولو كانت عن طريق نكاح وعقد رسمى مشروع ؛ ولذلك أصبحت حياة العزوبة مقياساً لسمو الأخلاق وعلو شأنها ، وأصبحت العزوبة وتجنب الزواج من أمارات التقوى والورع وذكاء الأخلاق . كما أصبحت الحياة العائلية من أمارات انحطاط الأخلاق ومهانة الطباع . وأصبح من المحتم على من يريد أن يعيش عيشة نزيهة ألاَّ يتزوج أصلاً ، أو لا يعاشر امرأته معاشر الزوج لزوجته على الأقل .

وحاول رجال الكنيسة أن يثبتوا فى قلوب الناس الشعور ببشاعة العلاقة الزوجية وتنجسها ، وقد بلغ من تأثير هذا التصور الرهبنى أن تكدر صفو ما بين أفراد الأسرة من الأواصر ، حتى العلاقة ما بين الأم وولدها منها ؛ إذ أصبحت كل قرابة ناتجة عن عقد الزواج تُعد إثمًا وشيئًا نجسًا .

وهكذا أصبحت الحياة الزوجية مبعث حرج وضيق للرجال والنساء معًا ، وانحطت منزلة المرأة فى المجتمع فى كل ناحية من نواحى الحياة ، واتسمت القوانين التى صدرت حين ذاك بتأثير الشريعة المسيحية بالخصائص الآتية :

١ ـ جعلت المرأة تحت سلطة الرجل الكاملة ، وأصبحت حقوقها فى الإرث والملكية قليلة جدًّا ، وليس لها الحق فى كسب يدها ، بل كان كل ما عندها ولها ملكًا لزوجها .

٢ ـ لا يجوز الطلاق أو الخلع مهما بلغ البغض والشقاق والتنافر بين الزوجين ، فكان الدين والقانون يُحتمان عليهما دوام العِشْرة ، وأقصى ما يمكن عمله فى بعض الأحوال الشاذة أن يُفَرق بينهما تفريقاً ، على أنه لا يجوز لذلك الرجل أو تلك المرأة بعد ذلك أن يجدد الحياة الزوجية .

٣ ـ كان من كبائر الإثم أن يتزوج الرجل أو المرأة ثانية إذا توفى عن أحدهما زوجه ؛ لأن هذا فى رأى علماء المسيحية إذعان للشهوات البهيمية ، وإطلاق لعنان غريزة الفحشاء . وكانوا يعبرون عن القران الثانى بكلمة الزنى المهذب .

حالة المرأة فى أوربا فى عصر الثورة الصناعية ـ من ١٧٥٠ م :

وبعد انتهاء عهد الرق والإقطاع فى أوربا بما كان فيه من مآس ومهانة للمرأة ، جاءت الثورة الصناعية ، فكانت الكارثة التى لم تصب المرأة بشرٍّ منها فى تاريخها الطويل . ففى عهد الرق والإقطاع ربما كانت الميزة الوحيدة هى أن طبيعة البيئة الزراعية تجعل إعالة الرجل للمرأة أمرًا طبيعيًا تقتضيه الظروف ، وعندما جاءت الثورة الصناعية قلبت الأوضاع كلها فى الريف والمدينة على السواء ، فقد حطمت الثورة الصناعية كيان الأسرة ، وحلت روابطها بتشغيل النساء والأطفال فى المصانع ، وفى ظل هذه الثورة الصناعية دفعت المرأة أفدح الثمن من جهدها وكرامتها وحاجاتها النفسية والمادية ، فقد تكاسل الرجل عن إعالتها من ناحية ، وفرض عليها أن تعمل لتعول نفسها ، حتى ولو كانت زوجة وأمًا ، واستغلتها المصانع أسوأ استغلال من ناحية أخرى ، فشغلتها ساعات طويلة من العمل ، وأعطتها أجرًا أقل من الرجل الذى يقوم معها بنفس العمل وفى نفس المصنع ؛ وهكذا ظلت المرأة فى محنتها هذه ، تنهك نفسها فى العمل مضطرة لإعالة نفسها ، وتتناول أجرًا أقل من أجر الرجل ، مع اتحاد الإنتاج والجهد المبذول .

حالة المرأة فى أوربا فى نهاية القرن الثامن عشر ـ من ١٧٨٩ م (بعد الثورة الفرنسية) :

وهنا نهض فلاسفة أوربا وأولو الرأى والعلم منهم ونفخوا فى أبواق الحرية الفردية للقضاء على ذلك النظام الفاسد ، وإلغاء امتيازات الإقطاع نهائياً ، واستبدال نظام جديد به أسفر عن ثورة فرنسا الشهيرة ، وإعلان حقوق الإنسان والمواطن ، وأصبح الشعار الجديد : «الحرية والمساواة والإخاء» ، ولكن كل ما فعلوه فى أوربا لانتشال المرأة من كبوتها هو التخفيف من قوانين الطلاق ، وعدلوا من القوانين التى كانت تضع النساء فى مستوى الجوارى والإماء ، وفتحوا أمام المرأة أبواب التعليم والتربية كالرجال .

حالة المرأة فى أوربا بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) :

ومع أوائل القرن العشرين جاءت الحرب العالمية الأولى ، وقُتل عشرة ملايين من

الشباب الأوربى والأمريكى ، وواجهت المرأة قسوة المحنة بكل بشاعتها ، فقد وجدت ملايين النساء بلا عائل ، فكان حتماً على المرأة أن تعمل ، وإلاَّ تعرضت للجوع هى ومَنْ تعول من العجائز والأطفال ، وكان حتماً على المرأة أن تتنازل عن أخلاقها أيضاً فلم تكن المسألة مسألة الحاجة إلى الطعام فحسب ، فالجنس أيضاً حاجة بشرية طبيعية لابد لها من إشباع ، ولم يكن فى وسع الفتيات أن يُشبعن حاجتهن الطبيعية منه ولو تزوج كل من بقى حيًّا من الرجال ، بسبب النقص الهائل الذى حدث فى عدد الرجال نتيجة الحرب .

وكما أوضحنا لم تكن عقائد أوربا ودياناتها تسمح بالحل الذى وضعه الدين الإسلامى الحنيف لمثل هذه الحالة الطارئة ، وهو تعدد الزوجات ؛ لذلك كان لابد للمرأة الأوربية أن تسقط راضية أو كارهة ؛ لتحصل على حاجة الطعام وحاجة الجنس .

واستغلت المصانع حاجة المرأة إلى العمل ، واستمرت فى معاملتها الظالمة التى لا يبررها عقل ولا ضمير ، فظلت المصانع تمنحها أجرًا أقل من أجر الرجل الذى يؤدى نفس العمل وفى نفس المكان ، ولكن . . ماذا بقى للمرأة ؟ لقد بذلت نفسها وكبرياءها وأنوثتها ، وحرمت من حاجتها الطبيعية إلى أسرة وأولاد تحس بكيانها بهم ، أفلا تنال مقابل ذلك على الأقل المساواة فى الأجر مع الرجل ؟ . . . لم يكن بد من ثورة جامحة تحطم ظلم أجيال طويلة وقرون عديدة .

لقد استخدمت المرأة أسلحة عديدة دفاعاً عن حقوقها المهضومة ، فاستخدمت الإضراب ، والتظاهر ، والخطابة فى المجتمعات ، واستخدمت الصحافة ، وطالبت بحق الانتخاب ، وحق التمثيل فى البرلمان . وبالفعل بدأت حركة إصلاح لأحوال المرأة وتحقيق بعض مطالبها .

حركة تحرير المرأة فى أوربا :

بعد الحرب العالمية الأولى بدأت حركة إصلاح لأحوال المرأة الأوربية ، غير أن هذه الحركة الإصلاحية بدأت تتسم بالإفراط والميل عن القصد ، وأصبحت الملامح الرئيسية للحركة النسائية الأوربية لتحرير المرأة تتضح فى ثلاثة أهداف رئيسية :

(أ) : المساواة المطلقة بين الرجال والنساء :

ليس فقط المساواة فى الحقوق البشرية والمنزلة الخُلقية ، بل أن تؤدى المرأة فى الحياة المدنية كل ما يؤديه الرجُل من أعمال ، بدون أى قيود ، من حياة سياسية ، وانتخابات نيابية ، ووظائف المكاتب ، ومهن تجارية وصناعية ، وحضور مجالس اللهو وحفلات الرقص ، والسهرات العامة ، مما انحرف بالمرأة عن أداء واجباتها الفطرية ، ووظائفها الطبيعية التى يتوقف على أدائها بقاء المدنية ، بل بقاء الجنس البشرى بأسره .

ونتيجة لذلك انهار النظام العائلى فى الغرب ، وانعدمت الحياة الأسرية التى يتوقف على هدوئها وطمأنينتها قوة الإنسان العملية ونشاطه ، وجاء التصور الخاطىء للمساواة الخلقية يساوى بين الرجال والنساء فى التبذل وفساد الأخلاق .

(ب) : استقلال النساء بشئون معاشهن :

كان الوضع الطبيعى هو : أن يكسب الرجل معاشه ، وتدير المرأة شئون البيت ، ولكن استقلال النساء بشئون معاشهن ـ حيث أصبحت المرأة تكسب كما يكسب الرجل ـ أدى إلى تقويض شئون البيت والعلاقة الزوجية ، فلم تعد تجبرها على الحياة الزوجية المشتركة غير صلة الشهوات وغرائز النفس .

وأدى هذا بالمرأة الأوربية إلى أنه لا داعى لأن تلازم رجلاً بعينه لإخماد نار شهواتها ، أو أن ترهق نفسها بأعباء خلقية وأثقال قانونية بغير طائل ، ولماذا تتحمل تبعات الأسرة والمنزل وفكرة المساواة الخُلقية قد أزالت جميع العقبات والعراقيل التى ربما كانت تعترضها فى سلوك طريق الدعارة والفجور؟ كما أزالت تدابير منع الحمل عن نفس المرأة الخوف من مولود تلده من فاجر مخمور ، وحتى إذا أخفقت تدابير منع الحمل فلا بأس بإسقاط الجنين ، وإذا فشلت هذه وتلك فلا بأس ، فقد أصبح المجتمع الأوربى يكرم الأم العذراء وولد الحرام ؛ لأن خلاف ذلك يُعَدُّ رجعية وتخلفاً وجمودًا . كل ذلك زلزل كيان المجتمع الغربى وأتى على بنيانه من القواعد .

(جـ) الاختلاط المطلق بين الرجال والنساء :

أدى هذا إلى الحث على غريزة التبرج والعرى فى النساء .

فالجاذبية الجنسية التى قد أودعتها فطرة الرجل والمرأة تزداد قوة وتأثيراً باختلاط الجنسين ، وتتخطى حدوده بكل سهولة ، فأصبح التبرج السافر والأخذ بكل أسباب الفتنة والاستهواء هو شعار المرأة الأوربية فى الغرب ، وأصبحت المرأة الأوربية تتسابق نحو التجمل وحب الظهور والتجرد من ملابسها شيئاً فشيئاً إثارة لنار الشهوة والعاطفة البهيمية المتأججة فى صدور الرجال ، فغلبت عليهم الشهوات البهيمية ، وأصبح هذا الداء الوبيل ينخر فى كيان الأمم الغربية ، والتاريخ يشهد أنه ماسرى هذا الداء فى مفاصل أمة إلا أوردها موارد التلف والفناء .

وبعد ، فهذا حال المرأة فى الغرب وما آلت إليه .

وتلك قصة كفاح المرأة لنيل حقوقها المزعومة فى أوربا .

ومع ذلك كله فقد تعجب حين تعلم أن إنجلترا أم الديمقراطية لاتزال إلى هذه اللحظة تمنح المرأة أجرًا أقل من أجر الرجل فى وظائف الدولة ؛ برغم أنه فى مجلس العموم نائبات محترمات ، وبرغم وصول المرأة فيها إلى منصب رئيسة وزراء (مسز تاتشر) .

وإذا كانت حركة تحرير المرأة فى الغرب قد بدأت فى أواخر القرن التاسع عشر ولم تظهر بصورتها الفعالة إلا مع بداية القرن العشرين ، فإن تحرير الإسلام للمرأة قد تم فى آخر الثلث الأول من القرن السابع الميلادى ، وشتان ما بين تحرير المرأة فى الغرب وتحرير الإسلام للمرأة ، فالإسلام أعاد إليها كيانها وإنسانيتها وكرامتها[1] .

---

(١) تاريخ العالم : ترجمة وزارة المعارف المصرية . والموسوعة الثقافية : للدكتور حسين سعيد .